الصمت

السبت 27 سبتمبر 2014 12:09 م

بقلم: أحمد الحارون

يبدو أننا أمة كلامٍ فقط، فقد برعنا فيه وأنشأنا له أسواقاً ومعارضَ، حتى في الأساطير لم ينقذ شهر زاد من الموت إلا الحكي وفنونه، لكن أورد الكثيرَ مصارعَ الردى ذللُ الكلام وعثراته، ويبقى المرء رهين كلامه، والكثير منا تمنى مراراً أن لو صمت بعد أن رأى عاقبة مقاله، والصمتُ يُعضُّ عليه بالنواجذ ويُثنى عليه بالخناصر وقرأت ذات مرة أن أبلغَ خطبة قالتها العرب هي خطبة عثمان رضي الله عنه حين صعد المنبر فحمد الله وأثنى على رسوله ثم قال:" نحن قوم قوال أكثر منه فعال" أو كما قال ادعُ اللهِ وأنتم موقنون بالإجابة ونزل .هذا على عهد عثمان وكثير من الصحابة والتابعين، فما بالنا لو صعد أحدهم الآن يصف حال ومشهد الأمة!

و قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وهما من أبلغ العرب بعد تجارب الكلام وحياة حافلة من الأقوال المأثورة والحكم .. قال أحدهم :الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت، والعاشر في اعتزال الناس فليت العرب تدرك قيمة الصمت، ولماذا لا نُقيم معرضاً أو سوقاً نتعلم فيه الصمت، فغالبُ ظنِّي أن الصمتَ والتدبر وجهان لعملة واحدة، والتدبر من أرقى العبادات، وقليل من التدبر يرينا كثيرا من العبر وكثيرا ما يعترينا القلق، ونغتمُّ لأن الطفل تأخر في النطق، أو كلامه ليس مثل أقرانه، وربما كان قلقنا في محله أحيانا، لكن لا يعترينا نفس القلق حين يكثر الصبي من الكلام الهزيل ويثرثر، ونحاول جاهدين أن نسكته حين يكبر فلا نقدر والآن أتساءل: هل الأصل الصمت أم الكلام؟ أعتقد أن القليل من يجاوب، وأقل هذا القليل من يحقق إجابته على الواقع، فالأصل أن يسكت المؤمن ولا ينطق إلا استثناءً " فليقل خيرا أو ليصمت "... أنسينا أم تناسينا؟ أم صارت أمة اقرأ تطرب ولا تقرأ؟ وعلمنا أن هز الخصور أقل عناء من شحذ العقول؟ اعلم أخي الكريم وأختي الكريمة أن: الصمت يصعب تأويله وهو أفضل جواب لكثير من الأسئلة، وقيل عنه أنه العلم الأصعب من علم الكلام، وحصائد الألسنة تكون سببا في كبِّ الناس على وجوههم يوم القيامة وقال أحد الشعراء:

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانة ....وليس يموتُ المرءُ من عثرةِ الرِّجْلِ

فعثرته من فِيه ترمْي برأسه .... وعثرته بالرِّجْلِ تبرأ على مَهْلِ

وهذا أبو العتاهية يقول: يخوضُ الناسُ في المقالِ ليوجزوا ....ولَلصَّمْتُ عن بعضِ المقالاتِ أوجزُ وجالس أعرابيٌّ الشعبي فأطال الصمتَ، فقال له الشعبي يوماً: لما لا تتكلم؟ فقال: أسمعُ لأعلمَ، وأسكتُ فأسلمَ، ولله در الشاعر حين قال:

استر النفسَ إن استطعتَ بصمتٍ ...إن في الصمتِ راحةً للصَّموتِ

واجعل الصمتَ إن عَييتَ جواباً ....رُبَّ قولٍ جوابُهُ في السُّكوتِ

وقال لقمانُ لابنه: يا بنُيَّ إنْ غُلبتَ على الكلام فلا تُغْلبْ على الصَّمتِ، فكن على أن تسمعَ أحرصَ على أن تقول، إني ندمتُ على الكلام مراراً، ولم أندم على السكوت مرة واحدة، وقال له أيضاً: "إذا افتخر الناسُ بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك"، وأنشد إبراهيم بن المهدي في هذا المعنى:

إن كان يُعجبكَ السكوتُ فإنه قد كان يُعْجِبُ قبلك الأخيارا

ولئن ندمتَ على سكوتك مرةً ....فلقد ندمتَ على الكلام مرارا

إن السكوتَ سلامةٌ ولربما ....زرع الكلامُ عداوةً وضِرارا

فحقيق على المسلم أن يدخر لسانه ولا يرسله في غير حقِّه، ويسكت بحلم وينطق بعلم، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يناظر ما لا يفهم، ولا يتعجل الجواب، وإن وجد من هو أعلم منه سكت لاستماع الفائدة عنه، وقال الأعْور الشَّنِّي فأحسن:

ألم ترَ مِفتاحَ الفؤادِ لسانَهُ إذا هو أبدى ما يقولُ من الفَمِ

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعْجِبِ زيادته ونقصه في التكلمِ

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفُ فؤاده فلم يبقَ إلا صُورة اللحم والدَّمِ

وفي اللسانِ آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكونُ كلٌّ منهما أعظمَ إثماً من الأخرى في وقتها، فالساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرس، عاصٍ للهِ مراءٍ مداهن إذا لم يخف على نفسه، والمتكلمُ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ لله وأكثرُ الخلقِ منحرفٌ في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهلُ الوسطِ – هم أهل الصراطِ المستقيم – كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم بالنفع في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلمُ بكلمةٍ تذهبُ عليه ضائعة بلا فائدة، فضلاً أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها كلها، ويأتي بسيئاتٍ أمثال الجبال فيجد لسانه قد

هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به
وقال سيدنا على ـ رضي الله عنه ـ ":إذا تمَّ العقل نقص الكلام، وبكثرة الصمت تكون الهيبة".
وأختم بالقول الجميل :الموتُ بداء الصمتِ خيرٌ من الموتِ بداء الكلام، فـ بمئزر الصمت ائتزر، وبدثار السكوت التحفْ وعلى يقين أن الكلَّ يصفني الآن بكثرة الهذيان ... ويقول: ليته سكت! لهذا أعلنها مدوية ســأصمت ... وأتخذ من صمتي عبادة